النيروز، عبر التاريخ وفي الأدب العربيّ[1]

د. محمّد محمّدي[*]

تبدأ الدراسات الأدبيّة عامَها الثاني مع الربيع الذي يصادف أوّله عيد النيروز، ولمّا كان لهذا العيد أثر كبير في التاريخ الإسلاميّ وفي الأدبَين العربيّ والفارسيّ معًا، رأينا أن نفتتح عدد الربيع هذا بالعرض التالي للنيروز وتطوّراته عبر التاريخ.

النيروز محرّفة عن كلمة النوروز الفارسيّة، ونوروز مركّبة من كلمتَين: أولاهما «نَو» أي «الجديد» وهي كلمة نجدها لنفس المعنى في أكثر اللغات الأوروبيّة الراجعة إلى أصل آري مثل New في الإنجَليزيّة و Neu في الألمانيّة و Nouveau في الفرنسيّة و Nova في الإيطاليّة؛ والكلمة الثانية «روز» بمعنى اليوم، فمعنى نوروز إذًا «اليوم الجديد». وهي تُطلق على عيد رأس السنة الفارسيّة الواقع في اليوم الأوّل من شهر (فَرْوَرْدين) [٢١ آذار/مارس] والموافق لأوّل فصل الربيع.

وعيد النيروز من أعظم الأعياد القديمة، بل من أقدمها، عاصر التاريخ وانحدر معه ثم مرّ من خلال الحوادث الجسيمة والعهود المتلاحقة الموالية والمناوئة حتى وصل إلى أيّامنا هذه محتفظًا بتقاليده وسننه التي كان يُحتفل بها فيه منذ آلاف السنين؛ لذلك قد يكون ممتعًا دراسة هذا العهد والمراحل التي اجتازها والتطورات التي طرأت عليه

(١) نُشرت هذه المقالة لأوّل مرّة في مجلّة **الدراسات الأدبيّة**، السنة الثانية، العدد الأوّل، ربيع ١٩٦٠، ص٣- ٣٦.

(*) رئيس منبر اللغة الفارسية وأوّل رئيس تحرير لمجلّة **الدراسات الأدبيّة**.studies.literary@gmail.com

في تاريخه الطويل، ولكنّنا رعاية للمقام نقتصر هنا على عرض أهمَّ مظاهره وبعض ما ظهر له من آثار في التاريخ والأدب العربيَّين.

النيروز في العهود القديمة

من الصعب جدًّا تحديد الوقت الذي اتُّخذ فيه النيروز عيدًا، إلّا أنّ بعض الباحثين -استنادًا إلى الروايات والأمارات التاريخيّة- يرجع بدء الاحتفال بهذا العيد إلى أواسط الألف الثاني، وبصورة أدقّ إلى حوالى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل المسيح.

وقد نقلت الكتب في علّة إيجاد هذا العيد حكايات وقصصًا أشبه بالأساطير منها بالحقيقة شأن كلّ أمر قديم، إلّا أنّ من المفهوم عند المؤرّخين أنّ الفضل في جعل النيروز عيدًا عامًّا يرجع إلى «جمشيد» الملك، لذلك يُعرف النيروز باسمه فيقال: (النيروز الجمشيديّ). ولا يعرف زمان هذا الملك بالضبط، فهو من الملوك القدامى الذين يحاط عصرهم بالغموض والذين اكتنفت شخصيّتهم بالأساطير. وقد نسبت إليه أعمال كثيرة، فذكروا أنّه أوّل من قسّم الناسَ إلى طبقات بحسب مهنتهم، وأنّه أوّل من عمل على توحيد الدولة وتعمير المدن.

وقد كان هذا العيد موضع احتفاء واحتفال على الصعيدَين الشعبيّ والرسميّ في جميع البلاد الشرقيّة التابعة للإمبراطوريّة الساسانيّة والمتأثّرة بالثقافة الفارسيّة؛ وظلّ معمولًا به في العهود الإسلاميّة من الوجهة الشعبيّة، ونفذ حتّى إلى دولة الخلفاء أنفسهم، سواء في ذلك الأمويّون الذين لم يكن عهدهم يتلاءم مع هذا النوع من العادات والتقاليد، والعباسيون الذين اهتمّوا به كثيرًا وبالغ كتّابهم ورجال بلاطاتهم في الاحتفال به. واستمرّ هذا العيد في عهود جميع الدول التي قامت في الشرق الإسلاميّ من تتريّة وتركيّة وإيرانيّة، حتّى وصل إلى العصر الحاضر بتقاليده وسننه التي كان يُعمل بها منذ آلاف السنين.

تقاليد النيروز

وكان للنيروز تقاليد كثيرة ومتنوّعة؛ يحدّثنا البيرونيّ أنّ الملوك الساسانيّين كانوا يحتفلون بالعيد ستّة أيّام جاعلين كلَّ يوم لطبقة من الطبقات، فاليوم الأوّل للعامّة، والثاني للدهاقين ورجال الدين، والثالث للفرسان والمؤبذان الكبار، والرابع لأهل بيته وأقربائه، والخامس لأبنائه[1] أمّا اليوم السادس فكان النيروز الكبير، وكان يُطيرّ في كلّ يوم من أيّام النيروز بازٌ أبيض.

ومن التقاليد المرعيّة أنّه كان يُبنى قبل النيروز بخمسة وعشرين يومًا في صحن دار الملك اثنتا عشرة اسطوانة من لبِن ويُزرع على كلّ اسطوانة منها نوعٌ من الحبوب، ولم يكن يحصد ذلك إلّا بغناءٍ وترنّم ولهوٍ وذلك في اليوم السادس من النيروز، وإذا حُصد نُثر في المجلس. وإنّما كانوا يزرعون هذه الحبوب للتفاؤل بها، وكانوا يتبرّكون بالنظر إلى نبات الشعير خاصّة.

وكان المغنّون يغنّون لكلّ يوم من أيّام النيروز لحنًا خاصًّا، وقد وردت في المحاسن والأضداد أسماء بعض الألحان والمغنين، فيقول مثلًا في «الفهلبذ» المغني المشهور لكسرى أبرويز إنّه لا يمضي يوم إلّا وله فيه شعر جديد وضرب بديع، وكان من أغانيه مديح الملك وذكر أيّامه ومجالسه وفتوحه[2].

ومن تقاليد النيروز ما ورد في المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ - كما يحدّثنا المؤرّخ أبو العبّاس أحمد القلقشندي في صبح الأعشى نقلاً عن ابن المقفع، وكذلك الألوسي في **بلوغ الأرب**- من أنّه كان من عادتهم أن يأتي الملك رجل من الليل قد أُرصد لما يفعله، حسن الاسم والوجه، فيقف على الباب حتى يُصبِح، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ووقف حيث يراه، فيقول له الملك: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأي شيءٍ وردت؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور، واسمي المبارك، ومن قبل الله أقبلت، والملكَ السعيد أردت، وبالهنا والسلامة وردت، ومعي

(١) راجع **الآثار الباقية**، ص٢١٨، ٢١٩.

(٢) **المحاسن والأضداد** (طبع ليدن)، ص ٣٥٩.

السنة الجديدة. ثمّ يجلس ويدخل بعده رجلٌ معه طبق من فضّة وعليه حنطة وشعير وجُلُّبان وحمّص وسمسم وأرز، من كلّ جنس سبع سنابل وسبع حبّات وقطعة سكّر ودينار ودرهم جديدان، فيضع الطبقَ بين يدي الملك. ثمّ تدخل عليه الهدايا، ويكون أوّل من يدخل عليه وزيره، ثمّ صاحب الخراج، ثمّ صاحب المؤونة، ثمّ الناس على مراتبهم، ثمّ يُقدَّم للملك رغيفٌ كبير مصنوع من تلك الحبوب موضوع في سلّة فيأكل منه ويطعم من حضره، ثمّ يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن يجدّد فيه ما أخلق الزمان، وأحقّ الناس بالفضل والإحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء. ثم يخلع على وجوه مملكته ويَصِلَهم ويفرق فيهم ما حُمل إليه من الهدايا"[1].

ويظهر ممّا ذكره الفيلسوف الرياضيّ الكبير عمر الخيّام الذي اشتهر برباعيّاته كما اشتهر بعلمه، في كتابٍ ألّفه في النيروز خاصّة باسم «نوروزنامه» أنّ أوّل من كان يدخل على الملك في صبيحة يوم النيروز ويقدّم إليه بهذه المناسبة هدايا كانوا يتفاءلون بها هو موبذ موبذان كبير رجال الدين.

قال عمر الخيّام: «كان من سنّة ملوك الفرس من عهد كيخسرو إلى عهد يزدجرد الملك الذي كان آخر ملوك الفرس أنْ يكون أوّل مَن يدخل على الملك من غير أسرته موبَد موبَدان مع كأس ذهبي مليء بالمُدام، وخاتم، ودرهم ودينار خسرواني، وقبضة من نبات الشعير المخضر، وسيف، وسهم وقوس، ودواة وقلم، وحصان وبازي، وغلام حسن الصورة؛ ثمّ يمدح الملك ويخاطبه بالخطاب التالي:

"أيّها الملك، في مهرجان فروردين بشهر فروردين بحريتك اختر الله ودين الكيانيين[2]؛ ليمنحك (سُرُوشُ)[3] المعرفة والبصيرة بحسن العمل، ولتعِش طويلاً بشيمة الأسد، وكُن سعيدًا على عرش الذهب، واشرب هنيئًا بجام جمشيد، واحفظ مع علوّ الهمّة

(١) راجع **بلوغ الأرب**، الطبعة الثانية: ص ٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) الكيانيّون: من ملوك الفرس القدامى.

(٣) سرُوش: ملاك الوحي في معتقد الزرادشتيّين.

سننَ القدامى ورياضة العدل والصدق. ليبق رأسَك مخضرًّا وشبابُك كنامي العشب وليكن فرسُك منتصرًا ومقضيَّ الغرض، سيفك وضاءً وماضيًا على الأعداء، بازيك قبوضًا وموفقًا في الصيد، عملك مستقيمًا كالسهم، وافتح بلدًا جديدًا؛ ولتبق على العرش مع الدرهم والدينار، وليكن الفنانُ والعالِم عندك مكرَّمَين، والدرهم ذليلًا، وسراياك عامرة، وحياتك مديدة".

وبعد أن يتلو خطابه يذيق الملك ويعطيه الجام، ويضع نبات الشعير في اليد الأخرى، والدينار والدرهم أمام عرشه، معبرًّا بذلك عن تفاؤله في اليوم الجديد والسنة الجديدة بأن يظلّ الكبار سعداء حتى العام التالي بأوّل ما تقع عينهم عليه، وأن يكون مباركًا عليهم لأنّ سعادة العالم وعمرانه بهذه الأشياء التي أتى بها الملك.

وحين ينتهي موبد موبدان من خطابه، يدخل عظماء الدولة ويقدّمون هدايا إلى الملك[1].

ومن تقاليد النيروز أيضًا إيقاد النار في ليلته ورشّ الماء في صباحه. وزعموا أنّ إيقاد النار فيه لتحليل العفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء، وقيل: إنّما فعلوا ذلك تنويهًا بذكره واشتهارًا لأمره.

وقيل في رش الماء إنما هو بمنزلة النشرة لتطهير الأبدان مما انضاف إليها من دخان النار الموقدة في ليلته.

وقد ذكروا في سبب رشّ الماء أنّ فيروز بن يزدجرد لمّا استتمّ بناء سور جيّ (إصفهان القديمة) لم ينزل المطر سبع سنين من ملكه، ثم نزل في هذا اليوم ففرح الناس بالمطر فصبّوا من مائه على أبدانهم من شدّة فرحهم، فصار ذلك سنّة عندهم في ذلك اليوم من كلّ عام[2].

(١) راجع (**نوروز نامه**)، تصحيح مجتبى مينوي، طهران ١٩٣٣ ص ١٨و١٩.

(٢) **بلوغ الأرب**: الطبعة الثانية، ج ١ ص ٣٢٠. راجع أيضًا **الآثار الباقية**: ص٢١٦-٢١٨.

النيروز في مصر

ويظهر ممّا نقلته المصادر أنّ النيروز كان قد تسرّب إلى مصر بتقاليده وسننه قبل الإسلام، إلّا أنّ موعده في مصر كان يختلف عن موعده في إيران وفي المشرق.

نجد بين التقويم المصريّ القديم والتقويم الإيرانيّ القديم شبهًا كبيرًا في كثير من الأصول والفروع؛ فالسنة المصريّة القديمة مثل السنة الفارسيّة شمسيّة زراعيّة، والتقسيم المصريّ للسنة يوافق تمامًا ما ذكرناه في التقسيم الفارسيّ من حيث عدد أيّام الشهور وقصر مدّة كلّ شهر على ٣٠ يومًا ثمّ إضافة خمسة أيّام في آخر السنة هي النسيء أو السنة المسترقة أو=epagomène ابوغمنا في اصطلاح المؤلّفين المسلمين[١] وتسمية كلّ يوم منها باسم أحد الآلهة، وكذلك عدم تقسيم الشهر إلى أسابيع، بل تسمية كلّ يوم من أيّام الشهر باسم خاصّ، وغير ذلك من الأمور المشتركة بين التقويمَين الفارسيّ والمصريّ ممّا لا يدع مجالًا للشكّ في أنّهما كانا متأثّرين بعضهما ببعض تأثرًا واضحًا، وأنّ التيار الفكريّ والمدنيّ كان قويًا بين الأمّتين في العصور القديمة. وقد أدخل فعلًا في التقويم الفارسيّ بعض إصلاحات مأخوذة عن التقويم المصريّ، وذلك في عهد داريوس الأكبر[٢] في القرن الخامس قبل الميلاد، فلا غَرْوَ إذًا أن يكون النيروز قد تسرّب إلى مصر باسمه وتقاليده وسننه منذ القديم.

وتجدر الإشـارة هنا إلى أنّ النيروز المصريّ أو القبطيّ يختلف في موقعه من السنة عن النيروز الفارسيّ؛ فالنيروز القبطيّ يقع في ١١ أيلول/سبتمبر، الذي يوافق أوّل شهر «توت» من الشهور القديمة المصريّة، وهو مبدأ السنة المصريّة الزراعيّة التي قوامها نهر النيل وأوقات فيضانه وانحساره عن الأراضي. وقد كان المصريّون القدامى يقسّمون السنة الزراعيّة إلى ثلاثة فصول: فصل الزراعة مكوّنًا من شهور «توت» و«بابه» و«هاتور» و«كيهك»، وفصل الحصاد من شهور «طوبة» و«أمشير» و«برمهات» و«برمودة»، وفصل قلّة الفيضان وكثرته في شهور «بشنس» و«بؤونة» و«أبيب» و«مسرى»، فأيّام النسيء.

(١) **گاهشماری در ایران قدیم**: ص ٩١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٣٠و١٣١.

وأمّا تاريخ دخول النيروز إلى مصر، فالمرجّح أنّه يرجع إلى عهد قمبيز من مشهوري ملوك الفروس الذي تغلّب على سامتيك الثالث وأدخل مصرَ ضمن إمبراطوريّته في سنة ٥٩٥ قبل الميلاد، وإن كان بعض الباحثين[١] يرى من المحتمل أن يكون ذلك في عهد كسرى أبرويز الذي دخل مصرَ سنة ٦١٩ بعد الميلاد. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أرجح، لأنّ عهد كسرى أبرويز في مصر في القرن السابع الميلاديّ لم يدم أكثر من عشر سنين، بينما عهد قمبيز وأخلافه دام طويلًا في مصر. ويظهر جليًّا ممّا ذكرناه من أنّ داريوس الأكبر خليفة قمبيز في الحكم أخذ في عهده عن التقويم المصريّ بعض الإصلاحات التي أدخلها في التقويم الفارسيّ، أنّ العلاقات الثقافيّة كانت قويّة واسعة بين البلدَين آنذاك، وأنّ مشاركة التقويمَين المصريّ والفارسيّ في الأصول سهّلت لهما طريق الأخذ والعطاء، فمن الطبيعيّ أن يكون المصريّون أخذوا النيروز وتقاليده ضمن هذا التفاعل الثقافيّ، ثم حوّروه بما يناسب طبيعة بلادهم، ونقلوه إلى رأس سنتهم الزراعيّة التي تقع في أوّل توت الموافق لـ ١١ أيلول/ سبتمبر من كلّ سنة.

وظلت التقاليد الفارسية مرعيّة في معظمها في النيروز المصريّ؛ وقد ورد في تاريخ مصر لأحمد بن أياس المسمّى «بدائع الزهور في وقائع الدهور»[٢] في وصف الاحتفال بالنيروز -عند ملوك القبط- ما يظهر منه أنّ النيروز اصطحب معه سننَه وتقاليدَه حيث حلّ؛ ونرى أن ننقل في ما يلي ما أورده أحمد بن إياس في هذا الباب، ليرى القارئ مبلغ ما بين عادات ملوك القبط في النيروز المصريّ وعادات ملوك الفرس في نيروزهم من تشابه يكاد يجعلها واحدة في العيدَين. قال ابن أياس:

«وكان من اصطلاح ملوك القبط في يوم النيروز وهو أوّل يوم من السنة القبطيّة أن يأتي الملكَ رجلٌ صبيحة ذلك اليوم ويدخل عليه بغير إذن، ويكون ذلك الرجل حسنَ الوجه حسن الثياب طيّب الرائحة فصيح اللسان، فيقف بين يدي ذلك الملك بحيث أنّه يراه، فيقول له الملك: من أنت ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك وما معك

(١) كالأستاذ توفيق اسكاروس في مقال له بعنوان (عيد النيروز).

(٢) ج ١، ص ١٩.

ولأيّ شيءٍ وردت؟ فيقول الرجل: أنا المنصور، واسمي المبارك، وإلى الملك السعيد أردت، وبالهنا والسلامة وردت، وبالعام الجديد قد أقبلت. ثمّ يجلس بين يدي الملك ويرد بعده رجلٌ معه طبق من الفضّة وفيه قمح وشعير وفول وحمص وبِسِلَّى[1] وعدس وسمسم وقطعة سكّر ودينار ذهب ودرهم فضّة ضرب في ذلك العام وطاقة آس، فيضع ذلك الطبق بين يدي الملك، ثمّ يقدّم إلى الملك رغيفًا قد صُنع من تلك الحبوب السبعة، فيأكل منه الملك ويُطعم مَن حوله من أرباب الدولة، ثمّ يدخل عليه الوزراء والحجّاب وعمّال الخراج ثمّ بقيّة الجند على قدر مراتبهم.

«ثمّ يقول الملك: هذا يوم جديد من عام جديد من زمان جديد، فنحتاج أن نجدّد فيه ما أخلق الزمانُ؛ ثم يأمر بأن يفرَّق ما في حواصله جميعًا من ملابس ومن فرش على جنده ثمّ يجدّد غيرها ويقول: ما من أخلاق الملوك أن يساووا العامّة في أفعالهم، ويدّخروا في حواصلهم كسوة الصيف إلى الشتاء ولا كسوة الشتاء إلى الصيف»، وهي التفاصيل نفسها التي وردت في المحاسن والأضداد وغيره من المصادر نقلًا عن ابن المقفع عن التقاليد المرعيّة في بلاطات الملوك الفرس.

ويظهر أنّ عيد النيروز قد لقي بمصر في القرون الوسطى اهتمامًا يذكر، فقد ورد في الخطط للمقريزي ذكرٌ للأيام التي كان الفاطميّون يتخذونها أعيادًا ومواسم، ويذكر من جملتها عيد النيروز الذي كانت «تُعطَّلُ فيه الأسواق ويقلّ فيه سعي الناس في الطرقات وتصرف فيه الكسوة لرجال الدولة وأولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوائج النوروز وأصنافها: البطيخ والرمان وعراجين الموز وأفراد البُسر أي البلح قبل أن يصير رطبًا وأقفاص التمر القوصي وأقفاص السفرجل وبُكَل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر من كلّ لون بُكلة مع خبز برٍّ مارق.. الخ الخ».

وقد منع السلطان الظاهر برقوق في القرن الرابع عشر للميلاد الاحتفال بالنيروز وهدّد كلّ من يخالف ذلك بالعقوبات الصارمة؟ ويقولون أنّ الموجب لذلك المنع كان تطرّف الغوغاء والرعاع المحرومين من نعمة الدين والأدب في الحريّة إبّان الاحتفال بما

(١) البِسِلّيّ: نبات له حبّ كالترمس أو أصغر منه (لغة مصريّة).

كانوا يأتونه من التراشّ بالماء القذر ووقود النيران والتراجم البيض والتصافع بالأنطاع (الكرابيج) وما إلى ذلك من شرب الخمور، فاقتصر الأمر في ذلك الحين على التبرّك بالماء في الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزّه، كما يحدث اليوم في الوجه القبلي من مصر من اجتماع أغلب الأهالي بأولادهم ونسائهم ومواشيهم ونزولهم صباحًا في الفجر المبكّر في النيل، وذلك في النيروز المصريّ بأول شهر توت. أمّا النيروز الفارسيّ أو النيروز السلطانيّ الذي يقع في ١٤ برمهات (٢٢ آذار – مارس) فقد خصّص له في التوقيعات اسم «شمّ نسيم العلماء» وهو غير شمّ النسيم العامّ لأنّه مختصّ بهذا اليوم الذي يوافق أوان اعتدال الهواء في غداة فصل الربيع[١].

النيروز في بدء الإسلام وفي العصر الأموي

وفي العهود الإسلامية الأولى وإن لم يكن الجو يلائم الاحتفالات بالنيروز على الصعيد الرسميّ، إلّا أنّ هذا العيد لم يفقد شيئًا من رونقه وأهميّته في الأوساط الشعبيّة في كلّ البلاد وعند عامّة الناس الذين كان الاحتفال بهذا العيد وممارسة سننه وتقاليده عادةً متأصّلة في نفوسهم، ولم يكن ليؤثّر في ذلك المؤثّرات الخارجيّة وتغير الدول أو انقلاب الأحوال. نعم لقد ترك الإيرانيّون بعد إسلامهم كثيرًا من التقاليد والسنن القديمة الناشئة عن ديانتهم القديمة، إلّا أنّ النيروز لم تكن له صبغة دينيّة فقط بل كان كذلك عيدًا شعبيًّا اجتماعيًّا، ولذلك نرى أنّهم احتفظوا به وبالغوا في الاحتفاء به ولم يروا في ذلك ما يتنافى مع دينهم الجديد. على أنّ الأمر زاد مع الزمن، فإذا النيروز يتطوّر في معتقد الناس حتى يكتسب مسحةً دينية؛ فقد ورد في بعض المصادر حديثٌ عن النبي [ﷺ] في فضيلة النيروز وحلواه[٢]، وجاء في بعض المصادر الشيعيّة أنّ خلافة الإمام علي

(١) الأستاذ توفيق اسكاروس في المقال المار الذكر.

(٢) ينقل ذلك الأستاذ السيد حسن تقي زاده في كتاب كاه شماري (ص١٥٤) عن كتاب **عجائب المخلوقات** للقزويني، ويذكر أنّ البيروني نقل قسمًا من هذا الحديث في **الآثار الباقية** (ص٢١٥) ويظهر أنّ القسم الأوّل منه سقط في النسخة المطبوعة. وقد جاء كذلك في **المحاسن والأضداد** (طبعة ليدن ص٣٦٦) حديث شبيه بهذا الحديث منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب.

بن أبي طالب بدأت في يوم النيروز، وهكذا وجد هذا العيد بهذه المسحة الدينيّة سببًا آخر من أسباب بقائه واستمراره.

ولئن كان النيروز - كما ذكرنا- لم يجد في هذا العصر الجوّ الملائم للاحتفال به على الصعيد الرسميّ كما كان الشأن في أيام الساسانيّين، إلّا أنّه لم يَزُل تمامًا عن مكانته الرسميّة في الدولة؛ فضلًا عن العامل التقليديّ الاجتماعيّ الذي فرض وجوده شعبيًّا وهو دأب الناس وعادتهم العريقة في الاحتفال به منذ أقدم العصور، هناك عوامل أخرى لم تساعد على استمرار هذا العيد في دولة الخلفاء فحسب، بل جعلت الخلفاء أنفسَهم -حتى الأمويّين منهم- يتمسّكون بهذا العيد ويحافظون عليه بكلّ دقة ويرقبون حلوله بفارغ الصبر وإن لم يحتفلوا به احتفال الأقدمين ولم يهمهم منه إلّا تاريخه. من أهمّ تلك العوامل عوامل الاقتصاد والمال التي كانت في العهود والعصور ولا يزال لها الأثر الحاسم في تطوير الأمور أو تثبيتها. فمن جملتها أنّ النيروز ظلّ في الدول الإسلاميّة كلّها بمختلف نزعاتها وسماتها رأسَ السنة الزراعيّة والماليّة وعليه كان مدار ديوان الخراج وغيره من الدواوين الماليّة، إذ عندما دالت دولة الساسانيّين في إيران، وآل الأمر إلى خلفاء المسلمين من العرب، وجد هؤلاء في تلك البلاد الشاسعة التابعة للنظم الإداريّة الساسانيّة من القواعد الماليّة المعقّدة[1] وأنظمة الضرائب والخراج في الدواوين الماليّة ما اضطروا معه إلى أن يبقوا نظام الدواوين والقواعد المتبعة فيه كما كانت من ذي قبل دون أن يمسّوها أو يعدّلوا فيها[2]، ولذلك بقي نظام الدواوين في الإسلام على ما كان عليه قبل الإسلام، وبقيت تلك الدواوين في أيدي أولئك الذين

(١) قال الإصطخريّ: «وليس في سائر دواوين الإسلام ديوان هو أصعب عملاً وأكثر أنواعًا من ديوان فارس لاختلاف ربوعها وتقارب الأخرجة على أصناف زروعها واختلاف أبواب أموالها وتشعّب الأعمال على المتقلّدين لها» – **مسالك الممالك**: ص١٤٦.

(٢) يحدثنا الطبري أنّه لّما فتح العراق أقرّ الخليفة عمر بن الخطاب نفس الوضائع التي كانت معمولاً بها هناك، وهي الوضائع التي قام بوضعها فيروز (٤٨٧– ٤٩٨م) وأكملها بعده كسرى أنوشروان (الطبري، الجملة الأولى: ص ٩٣٦؛ راجع في ذلك أيضًا ابن الأثير: ج٢ ص٣٣١).

كانوا يتولّون مقاليدها ويديرون أمورها من قبل[١]. وعندما نُقل ديوان العراق من الفارسيّة إلى العربيّة في عهد عبد الملك لم يتعدّ ذلك اللغة، وبقيت الأنظمة كما هي، بل وبقيت بعض الدواوين المحليّة كدواوين مقاطعات فارس وإصبهان[٢] وخراسان[٣] وغيرها فارسيّة مدى أعوام طويلة بعد هذا النقل[٤].

وبما أنّ مدار الخراج كان على المواسم الزراعيّة، وبما أنّ السنة الشمسيّة التي كان يعمل بها في الدواوين الفارسيّة القديمة كانت أكثر ملاءمة من السنة العربيّة للمواسم والفصول، وبما أنّ القائمين على أعمال الديوان في تلك المقاطعات الإيرانيّة كانوا من الطبقة نفسها التي كانت تدير أعمال الدواوين منذ عهد الأكاسرة، فقد بقي العمل في الدواوين الماليّة وفي أمور الخراج بالتقويم الإيرانيّ، وبقيت الشهور الفارسيّة مستعملة بأسمائها الفارسيّة، بل حتّى أيّام الشهر الفارسيّة الثلاثين بقيت مستعملة أيضًا في بعض تلك الدواوين[٥].

ويحدّثنا المقدسيّ عند وصفه لفارس عن كيفيّة استعمال هذا التقويم الفارسيّ في الدواوين بتفصيل ودقّة ويقول: «ولكلّ يوم من الشهر اسم عليها تاريخات الدواوين مثل أيّام الجمَع بسائر الأقاليم»، ثمّ يعدّد تلك الأسماء الفارسيّة المستعملة في الدواوين[٦]. ويقول البِيروني في أنّ استعمال الأسبوع خاصّة أهل المغرب وخاصّة أهل

(١) يقول ابن حوقل: «وبفارس سنّة جميلة وعادة فيما بينهم وفضيلة، من تفضيل أهل البيوتات القديمة، وإكرام أهل النعم الأزليّة. وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيّامهم إلى يومنا هذا» (راجع **صورة الأرض**: ص٢٩٢ – ٢٩٤؛ والإصطخري: ص١٤٧ و١٤٨).

(٢) يحدّثنا ابن رسته وهو من أهالي إصفهان ومن عمال ديوان الخليفة في أواخر القرن الثالث أنّ أوّل من كتب بالعربيّة في ديوان إصبهان سعد بن إياس وهو كاتب عاصم بن يونس عامل أبي مسلم صاحب الدولة (**الأعلاق النفسية**: ص١٩٦)؛ وهذا صريح بأنّ ديوان مقاطعة إصبهان بقي فارسيًا طوال الخلافة الأمويّة.

(٣) ويظهر من الفخري لابن الطقطقي أنّ الكتّاب القائمين بامر الديوان بمرو كانوا لا يزالون من المتخرّجين من الكتاتيب الفارسيّة في عهد سويد جدّ محمد بن يزداد الكاتب (الفخري، ص ٢٨٣).

(٤) عندما يصف المقدسي ألسنة الخراسانيّين أو لهجاتهم الفارسيّة المختلفة في عصره، يذكر أنّ لغة البخارين دَريّة -الدريّة هي الفارسيّة السليمة الادبيّة- ويقول في علّة هذه التسمية: وإنّما يُسمّى ما جانسها دريًّا لأنّها اللسان الذي تُكتب به رسائل السلطان وترفع به إليه القصص» (**أحسن التقاسيم**: ص)٣٣٥.

(٥) راجع **الآثار الباقية**: ص٦٨ – و**أحسن التقاسيم**: ص٤٤١.

(٦) **أحسن التقاسيم**: ص٤٤١.

الشام وحواليه، بسبب ظهور الأنبياء فيهم وإخبارهم عن الأسبوع الأوّل وبدو العالم فيه[1]. فطبيعي والحالة هذه أن يبقى بذلك عيد النيروز ما دام عيد رأس السنة التي اعتمدها الخلفاء وجعلوها السنة الزراعيّة والماليّة لدولتهم، وبذلك احتفظ هذا العيد بكيانه رسميًّا في قلب الدولة.

وعامل آخر كان له أثر كبير في تمسّك الخلفاء وعمّالهم بهذا العيد يكمن وراء سُنّة من سُنن النيروز القديمة هي سُنة تبادل الهدايا والتحف التي كانت رمزًا لتأليف القلوب ووسيلة لتجديد الروابط المعنويّة في هذا العيد بين الناس على اختلاف طبقاتهم وخاصّة بينهم وبين حكّامهم؛ فقد تطوّرت هذه السنة في العصر الأمويّ حين استغلّ الخلفاء وعمّالهم عادةَ تقديم الهدايا فجعلوها ضريبة كغيرها من الضرائب تُجبى من الناس في أيّام النيروز، واستفحل أمرُها في أواخر هذه الدولة إلى درجة نرى من الأنسب أن نتعرّض لها هنا بتفصيل أكثر.

إنّ عادة تقديم الهدايا وتبادل التحف في عيد النيروز التي لا تزال على قوتّها حتّى اليوم، هي من التقاليد القديمة لهذا العيد، وقد كان لها نظمٌ وقواعدُ خاصّة في العصور القديمة قبل الإسلام، وكان الناس -ولا يزالون- يرون إلى الهدية بهذه المناسبة كرمز لتأليف القلوب بين الناس كما قدّمنا، ووسيلة لتجديد الروابط المعنويّة بينهم وبين حكّامهم، فكان ينظر إلى قيمة الهدايا الأدبيّة أكثر من قيمتها الماديّة ولعلّ أحسن وصف وصلنا لكيفيّة هذه السنّة في العصر الساسانيّ هو ما نجده في كتاب التاج ممّا تسرب إليه من المصادر الفارسيّة؛ نقرأ في هذا الكتاب تحت عنوان «ومن حقّ الملك هدايا النيروز والمهرجان» ما يلي: «والسنّة في ذلك عندهم (أي الفرس) أن يهدي الرجل ما يحبّ من ملكه إذا كان في الطبقة العالية؛ فإن كان يحب المسك، أهدى مسكًا لا غيره، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبرًا، وإن كان صاحب بزّة ولبسة أهدى كُسوة وثيابًا، وإن كان الرجل من الشُّجَعَاء والفُرسان، فالسُّنة أن يُهديَ فرسًا أو رمحًا أو سيفًا، وإن كان راميًا، فالسنّة أن يهدي نُشّابًا، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنّة أن يُهدي

(١) **الآثار الباقية**: ص٤٩.

ذهبًا أو فضّة، وإن كان من عُمّال الملك وكانت عليه موانيذ (متأخّرات أو بقايا) للسنة الماضية جمعَها وجعلَها في بِدَر حريرٍ صينيٍ وشريحات فضّة وخيوط إبريسَم وخواتيم عنبر ثم وجَّهها، وكذلك إنما كان يفعل من العمّال مَن أراد أن يتزيَّن بفضل نفقاته أو بفضل عُمالته أو أداء أمانته. وكان يُهدي الشاعرُ الشعرَ والخطيب الخطبةَ والنديم التحفةَ والطرفةَ والباكورة من الخَضراوات.

وعلى خاصةِ نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثِرنه ويفضِّلنه كما قدّمنا في الرجال. غير أنّه يجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أنّ الملك يهواها ويُسرُّ بها أن تهديها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زينتها وأحسن هيآتها؛ فإذا فعلت ذلك، فمن حقّها على الملك أن يقدّمها على نسائه ويخصّها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة ويعلم أنّها قد آثرته على نفسها وبذلت له ما لا تجود النفس به وخصّته بما ليس في وسع النساء -إلّا القليل منهن- الجود به.

ومن حقّ البطانة والخاصّة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوّم قيمة عدل؛ فإذا كانت قيمة الهدية عشرة آلافٍ، أثبتت في ديوان الخاصّة، فإن كان صاحبها ممّن يرغب في الفضل، ويذهب إلى الربح، ثم نابته نائبةٌ من مصيبة يُصاب بها أو بناء يتخذه أو مأدبة يأدِبها أو عرس يكون من تزويج ابن أو إهداء إبنةٍ إلى بعلها، نُظر إلى ماله في الديوان -وقد وُكّل بذلك رجل يرعى هذا وما أشبَهه يتعهّده- فإذا كانت قيمة الهدية عشرة آلاف، أضعفت له ليستعين بها على نائبته، وإن كان الرجل ممّن أهدى نشابة أو درهمًا أو تفاحة أو أترجة، فإنّ تلك الهدية إنّما قدّمها لتثبت له في الديوان، ويخبر الملك إن نابته نائبة، فعلى الملك إعانته عليها إذا كان من أساورته وبطانته ومحدثيه. فإذا رفع للملك أنّ له في الديوان نشّابة أو درهمًا أو أترُجَّة أو تفاحة، أمر الملك أن تؤخذ أترجة فتُملأ دنانيرَ منظومة ويوجّه بها إليه. وكان لا يعطي صاحب التفاحة إلّا كما يعطي صاحب الأترجة، وأمّا صاحب النشابة فكانت تخرج نشابته من الخزانة وعليها اسمه، فتنصب ويوضع بإزائها من كسوة الملك ومن سائر الكساء، فإذا ارتفعت حتى توازيَ نصلَ النشابة دعي صاحبها فدُفعت إليه تلك الكسوة.

وكلّ من تقدّمت له هديّة في النيروز والمهرجان -صَغُرت أم كبرت، كثرت أم قلّت- ثم لم يخرج له الملك صلةً عند نائبة تنوبه أو حقّ يلزمه، فعليه أن يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه وأن لا يغفل عن إحياء السنّة ولزوم الشريعة. وإن غفل عن أمره بعارض يحدث، فإن ترك ذلك على عمد، فإنّ سنّة الملك أن يحرِمَه أرزاقه لستّة أشهر، وأن يدفعها إلى عدوّه -إن كان له- إذ أتى شيئًا فيه شين على الملك وضعة في المملكة»[١].

وقد أخذ الناس بسنّة تقديم الهدايا حتى بعد زوال الساسانيّين، فكانوا يقدّمونها إلى الأمراء والولاة والخلفاء من العرب والمسلمين؛و لم تخرج في عهد الراشدين عن كونها هدية، وقد جاء في المحاسن والأضداد أنّ قومًا من الدهاقين أهدوا الإمام علي بن أبي طالب جامات فضّة فيها الأخبصة فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم نيروز؛ فقال: نَيرِزُونا كلّ يوم؛ فأكل الخبيصة وأطعم جلساءَه وقسّم الجامات بين المسلمين وحسبها لهم في خراجهم[٢]. ولكن لم تلبث هذه الهدايا أن اتخذت شكل الضريبة في العهد الأمويّ، فكان الخلفاء يفرضون على الأهالي هدية النيروز ويطالبونهم بها كما كانوا يطالبون بالضرائب والخراجات[٣]. ويظهر مماّ ذكره الصولي أنّهم كانوا يفرضون هدية في «المهرجان» أيضًا، وهو عيد آخر في أوائل الخريف كان يتلو النيروز في الأهميّة؛ قال الصولي: «أخبرني أهل الأرض بالعراق أنّه بلغ الخراج على عهد عمر وعثمان مائة ألف ألف، ولمّا وليَ معاوية صار إلى خمسين ألف ألف وهدايا النيروز والمهرجان خمسون ألف ألف لنفسه. وكان قد اصطفى أموال كسرى، فكان يقطع فيها ويصل ويجيز من يشاء. ثمّ بلغ الخراج في فتنة ابن الزبير ستين ألف ألف وهدايا النيروز والمهرجان وصواف نحو عشرين ألف ألف. فلما وليَ الحجّاج صار إلى أربعين ألف ألف، وما كان يصل إلى ذلك إلّا بضرب الأبدان، وقد ظلّ الأمر هكذا إلى عهد عمر بن عبد العزيز حتى نسخه، إلّا أنّ نسخه لم يدم طويلًا لأنّ اليزيد الثاني من بعده عاد وأقرّه ثانية[٤].

(١) **كتاب التاج**، تصحيح أحمد زكي: ص١٤٧ و١٤٨ و١٤٩.
(٢) **المحاسن والأضداد**: ص٢٣٨. وراجع في هذا المعنى **القاموس** للفيروز آبادي في مادة «نرز».
(٣) راجع **تاريخ اليعقوبي**: ج٢ ص٢٥٩، و**تاريخ التمدن الإسلامي** لجرجي زيدان: ج٢ ص٢٢.
(٤) راجع **أدب الكاتب** للصولي: ص٢١٩.

النيروز في العصر العباسي

وقد استعاد النيروز في بلاط الخلفاء العباسيّين شيئًا من رونقه الذي كان له في العصور السابقة للإسلام، وأخذ الكتّاب والوزراء الفرس يحتفلون بهذا العيد احتفالًا رائعًا، وشاعت من جديد سنّة تقديم الهدايا مع ما كانت لها من قيمة أدبيّة ومعنويّة بطريقة يظهر فيها الأدب والذوق والظرف والتمدّن، وتنمّ عن تطوّر في المفاهيم والقيم وتقدمٍ في مستوى الحضارة ورقّة في العواطف في هذا العصر. وقد شقّ النيروز لنفسه بواسطة هؤلاء الكتّاب والوزراء طريقًا إلى الأدب العربيّ، فتبارى الشعراء والأدباء وتفنّنوا في الكتب والرسائل والقصائد التي كانوا يكتبونها أو ينشئونها في مناسبات الاحتفال بهذا العيد، فأتوا بنوع جديد من الشعر الكتابة هو ما نراه من كتب التهاني أو الهدايا الأدبيّة التي نجدها مبعثرة في كتب الأدب والتاريخ، والتي تُعدّ من روائع الأدب العربيّ في ذلك العصر.

قال القلقشندي في باب التهنئة بالنيروز: «إنّه أجَلُّ أعيادِ الفرس، وكان للكتّاب به اهتمام في أوائل الدولة العباسيّة بالعراق جريًا على ما كان عليه الفرس من قديم الزمان»[1] وأورد قسماً من رسالة كانت قد كتبت في تهنئة النيروز جاء فيها في وصف هذا العيد في تلك الأزمان: «هذا يوم تسمو له العجم ويستعجم في العرب، تشريفًا واعترافًا بفضله واقتداءً بأهله وأخذًا بسنّتهم فيه، فَليَهْن لاحراز الدولة في العز]منزلًا[بحيث لا يُرام ولا يُضام، ولا ترقى إليه الأماني ولا يطمع في مساواته المساوي، وإنّهم بعد تصرّم الدولة على حميد آثارها وجميل الذكر فيها، أعلام تضرب بهم الأمثال وتزهو بأيّامهم الأيّام، وآثارهم تقتفى وأعيادهم تنتظر، يتأهّب لها قبل الأوان، ويعرف فيها أثر الزمان»[2].

وفي حكاية وردت في الكامل للمبرّد نجد ذكرًا لهديّة الشاعر أبي العتاهية إلى الخليفة المهدي في النيروز والمهرجان، وذكروا «أنّ أوّل من افتتح الهدية في النيروز أحمد بن

(١) **صبح الأعشى**، ج٩ ص٤٧.
(٢) م.ن، ص٤٨.

يوسف الكاتب، فإنّه أهدى فيه للمأمون سفط ذهب فيه قطعة عود هنديّ في طوله وعرضه، وكتب معه: هذا يوم جرت فيه العادة بإتحاف العبيد للسادة، وقد قلت:

على العبد حقٌّ وهو لا شكَّ فاعِلُهْ و إنْ عظم المـولى وجلّت فضائله

ويقول بعده:

ألم تـرنـا نـهـدي إلى الـلـه ماله وإن كـان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كـان يُـهـدَى للجليل بقدره لـقـصَّرَ عنه البحر يـومًـا وساحله
ولـكـنّـنـا نـهـدي إلى مـن نجلّه وإن لم يكن في وسعنا ما نشاكله»[1]

وفي المحاسن والأضداد[2] نقرأ أنّ حسن بن وهب أرسل إلى المتوكّل في تهنئته بالنيروز ومدحِه كتابًا؛ ونقرأ فيه[3] كذلك أنّ المازني أرسل يوم العيد بهذه الأبيات إلى الخليفة:

جـعـلـت فـــداك لـلـنـيروز حق فـأنـت عـلـيّ أعـظـم مـنـه حـقّـا
ولـو أهـديـت فـيـه جميع ملكي لـكـان جـلـيـلـه لـك مـسـتـدقّـا
فـأهـديـتُ الـثـنـاء بـنـظـم شعر وكـنـتَ لـذك مـنـي مستحقّا

ومما روي عن حسن بن وهب أيضًا ممّا بعثه إلى المتوكّل من كتب التهنئة بالنيروز قوله: «أسعدك الله يا أمير المؤمنين بكرِ الدهور وتكامل السرور، وبارك لك في إقبال الزمان وبسط بيمن خلافتك الآمال» وكتب في آخره:

فـداك الـزمـان وأهـل الـزمـان إمـامَ الـهـدى بـك مستبشرينا
قـدَ ألـقـوا إلـيـك مـقـاليدهم جـمـيـعًـا مـطـيـعين مستوثقينا
ولا زلـت زيـنًـا لأعـيـادنـا ولـلـديـن كـهـفًـا وحـصـنًـا حصينا

وروي أيضًا أنّ حسن بن وهب بعث الأشعار التالية إلى الخليفة المتوكّل مع كأس من الذهب هديةً للعيد وهي:

يا إمـام الهدى سعدت من الده رِ بـركـن مـن الإلـه عـزيـز

(١) **بلوغ الأرب**: ص٣٥١.
(٢) ص٢٤١.
(٣) **المحاسن والأضداد**: ص ٢٤٣.

لا تـزل ألـف حـجـةٍ مـهـرجـانٍ أنـت تـقـضي بـه إلى الـنـيروز
ونـعـيـم ألـذّ مـن نـظـر المعشو ق مـن بـعـد نـبـوةٍ ونـشـوز؟

وممّا نقل من هذه الآثار الأدبيّة ما كتبه سعيد بن حميد إلى صديق له يوم النيروز: «هذا يوم سهلت فيه السُنَّة للعبيد الإهداء للملوك، وتعلّقت كلّ طائفة من البر بحسب القدرة والهمّة، ولم أجد فيما أملك ما يفي بحقّك، ووجدتُ تقريطك أبلغ من أداء ما يجب لك، ومن لم يؤتِ في هديّة إلّا من جهة قدرته فلا طعن عليه في همّته»[(١)].

وقال شاعر يعتذر من عدم تقديمه هدية في النيروز وإهدائه القريض بدلًا منها:

دخـلـت الـسـوق ابـتـاع واسـتـطـرف مـا أهـدي
فـمـا اسـتـطـرفـت لـلإهـدا ءِ إلّا طُـرَفَ الـحـمـد
إذا نـحـن مـدحـنـاك رعـيـنـا حـرمـة المـجـد

ومن هذه الأشعار ما قاله بعضُهم لأحد الخلفاء:

عـيـد جـديـد وأنـت جـدّتـه يـا مـن بـه لـلـزمـان تـجـديـد
لا زال طـول الـزمـان يرجعه وظـلّ مـلـك عـلـيـك مـمـدود

ومن لطيف الأشعار العربيّة في النيروز مع الإشارة إلى تقاليده في إيقاد النار وصب الماء قول أحد الشعراء:

كيف ابتهاجُكَ بالنيروز يا سكني وكـل مـا فيه يحكيني وأحكيهِ
فـتـارة كلهيب الـنـار في كبدي وتـارة كـتـوالي عـبرتي فـيـه
أسلمتني فيه يا سؤلي إلى وصبٍ فكيف تهدي إلى من أنت تهديه[(٢)]

ومنه قول شاعر آخر في هذا المعنى:

نـورز الـنـاس ونـورَزْ تُ ولـكـن بـدمـوعـي
وذكـت نـارُهـمـو والـنـار مـا بـين ضـلـوعـي[(٣)]

---

(١) **بلوغ الأرب**: ج١ ص٣٥١، الطبعة الثانية.
(٢) م.ن: ج١ ص٣٢٠، الطبعة الثانية.
(٣) نقلاً عن كتاب «**الاشتقاق والتعريب**» لعبد القادر بن مصطفى المغربي، ص ٤٨و ٤٩.

ومن لطيف من قيل في النيروز وهداياه ما نقله أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتَين. قال: «وأهدت امرأة من العجم إلى هوىً لها في يوم نيروز وردًا وكتبت إليه: «هذا اليوم أحد فتيان الدهر وشباب أقسامه والقصف فيه عروس والورد في البرد كالدرّ في النحر، وقد بعثت إليك منه مهرًا يسومك فزوّج السرور من النفس والطرب من القلب، ولا تستقل برًّا فإنّا لا نستكثر على قبوله شكرًا»[1].

وفي ديوان مهيار الديلمي نجد ٦٨ قصيدة قالها في التهنئة بالنيروز[2]. ومن أقواله فيها يصف موقعه في أيّام السنة قوله:

أبـنـاء «كـسـرى» نـشرت مـجدًا ... مـا أدرجـت مـنـهـم اللـيـالي
والـيـوم عـن مـلـكـهـم حـديث ... يُـنـبـي بـأيّـامـه الأوالي
بـنـوا عـلى الـعـدل كـلّ شيء ... فـانـتـخـبـوه يـوم اعـتـدال[3]

ومنها قوله يشير فيه إلى تقادم عهده :

صَبَحتك بالنيروز غرة قادم ... حمل التحية من حبيب واصل
يوم أحب حضور أندية الندى ... فأتاك في وفد الثناء الحافل
يدلي إليك بفضله في «فارس» ... وبحقّه المتقادم المتطاول
ويذمّ فيك بألف يوم مثله ... في العزّ يشهد عامها بالقابل[4]

ومن لطيف أقواله في هذا الصدد ما قاله في مدح أبي القاسم بن الحسين عند تقلّده الوزارة وبه تهنئة بنيروز سنة أربع عشرة وأربعمائة، قال فيها:

واطْلعُ على النيروز شمسًا إذا ... ساق الغروبُ الشمسَ لم تغربِ

---

(١) **الصناعتين**، الطبعة الثانية: ص٢٧٢.

(٢) تجد هذه القصائد في الصفحات التالية من ديوان مهيار الديلمي طبعة دار الكتب ج١: ص٨٢ و٨٨ و١١٣ و١١٩ و١٢٥ و١٢٨ و١٨٣ و٢٠٢ و٢٦٧ و٣٣٠ و٣٣٦ و٣٧٤ و٣٧٧ و٣٩٣ و٣٩٨ - ج٢: ص١٠ و١٦ و٦٧ و٧٥ و٧٩ و٨٤ و٨٧ و٩٩ و١١٧ و١٤٠ و١٤٥ و١٥٠ و١٥٢ و١٥٤ و١٥٧ و١٦١ و١٧١ و١٧٧ و١٩٧ و٢٠٤ و٢٢٢ و٢٧٦ و٢٨١ و٣٥٣ و٣٦١ - وج٣: ص١ و٤٥ و٦٧ و٨٣ و٨٧ و١٤٣ و١٥٧ و١٧٤ و١٧٩ و١٨٧ و١٨٨ و٢٠٦ و٢٢٧ - ج٣: ص٢٣٢ و٢٤٩ و٢٥٧ و٢٦١ و٢٩٥ و٣٠٩ و٣١٨ و٣٢٧ - ج٤: ص٤ و٣٥ و٤٣ و٧٢ و٨٩ و١٣٠ و١٤٢ و١٨٣ و١٨٩.

(٣) م.ن: ج٣ ص٤٧.

(٤) م.ن: ج٣ ص١٨٧.

تـفـضُـل مـا كـرَّ سِـنـي عـمـرِه بمـلء كـفِّ الـحـاسـبِ المطـنـبِ
بـاتَ مـن الإحـسـان في داركـم -وهـو غـريـبٌ- غـيرَ مستغربِ
لـو شـاء مـن يـنـسـب لم يـعـزُهُ لـغـيركـم عـيـدًا ولم يـنـسِـبِ[1]

ولسنا هنا في موقف من يعدّد القصائد الشعريّة أو القطع الأدبيّة الرائعة التي قيلت في النيروز فالمتصفّح للكتب الأدبيّة العربيّة يجد كثيرًا منها، وقد كان من أثر الاهتمام العظيم الذي كان يبديه الخلفاء والوزراء والكتّاب في العصر العباسيّ بالنيروز وتباريهم في إعداد الرسائل البديعة والأشعار اللطيفة في التهنئة بهذا العيد وبغيره من الأعياد الفارسيّة أن ظهر في الأدب العربيّ مؤلّفات خاصّة فيها، منها كتاب لأبي الحسن علي بن هارون بن علي بعنوان (كتاب النوروز والمهرجان)[2] ومنها كتاب موسى بن عيسى الكسروي بعنوان (كتاب الأعياد والنواريز)[3]؛ وقد ألّف حمزة بن الحسن الإصفهاني من روائع الأشعار التي قيلت بهذه المناسبة وكانت شائعة في عصره كتابًا خاصًا بعنوان (الأشعار السائرة في النيروز والمهرجان)[4]، ونجد أمثلة كثيرة منها في كتب الثعالبي والجاحظ وغيرهما.

النيروز المعتضدي:

يحدثنا المؤرّخون عن تصرّف حدث في تعيين يوم النيروز أدّى إلى تأخيره عن موعده نتيجةً للخلل الذي كان قد حصل في أمر الخراج، وذلك في أيّام المتوكّل الخليفة العباسيّ ثمّ تحقيقه في عهد الخليفة المعتضد الذي عرف باسمه. وبما أنّ هذا الحدث كان ذا تأثير كبير في أوساط الناس وفي المزارعين وأصحاب الأملاك خاصّة وقد انعكس في الأدب والشعر كذلك، نرى أن نورد هنا بعض المعلومات عن هذا التصرّف، والعلل التي أدّت إليه.

(١) م.ن: ج١ ص٨٢.
(٢) **الفهرست**، طبعة مصر: ص٢٠٦، وطبعة ليدن: ص١٤٤.
(٣) **الفهرست**، طبعة مصر: ص٢١٤.
(٤) **المحاسن والأضداد**: ص٢٤١.

قلنا إنّ مدار أمر الخراج وتاريخ الدواوين الماليّة كان على السنة الشمسيّة الإيرانيّة التي تبدأ بالنيروز. والسنة الشمسيّة الإيرانيّة كانت تعدّ ٣٦٥ يومًا، أي ١٢ شهرًا بكلّ منها ٣٠ يومًا مع خمسة أيّام أخرى كانت تُضاف إليها باسم (الخمسة المسترقة). ولمّا كان مجموع هذه الأيام يقلّ عن السنة الشمسيّة الحقيقيّة بحوالي ست ساعات أي بيوم تقريبًا كلّ أربع سنوات، لذلك كانوا يكبسون السنة بطريقة خاصّة، هي أن يضيفوا إلى السنة شهرًا كاملًا في كلّ ١٢٠ سنة، بدل أن يضيفوا إليها يومًا في كلّ أربع سنوات كما هو الحال في التقويم الروميّ.

والعلّة في ذلك أنّ الشهور لم تكن تقسم في التقويم الفارسيّ إلى أسابيع كما هي مقسومة في التقويم العربيّ والروميّ، بل كان لكلّ يوم من أيّام الشهر اسم خاصّ يتكرّر مرّة في كلّ شهر، ولكلّ يوم أعمال دينيّة خاصّة بحسب التعاليم الزرادشتيّة، فإذا أضافوا إلى الشهر يومًا أخلّ ذلك بترتيب الأيّام وبالنظام الخاصّ بتتابع الأعمال في كلّ يوم، ولذلك كانوا يؤخّرون التكبيس مأة وعشرين سنة حتى يصير الزائد شهرًا كاملًا، فيضيفونه إلى شهور تلك السنة ويعاملونه معاملة بقيّة الشهور.

ويتّفق جميع المصادر الفارسيّة والعربيّة أمثال كتب المسعودي والبيروني وكوشيار (مجمل الأصول) وكتاب «دينكرت» بالفهلويّة وكتب قطب الدين الشيرازيّ والغ بيك على أنّ هذه الكبيسة كان يعمل بها في العهد الساسانيّ، ويظهر من البيروني أنّهم كانوا يحتفلون بها احتفالًا كبيرًا في جمع عظيم من العلماء والمنجّمين والحُسَّاب وكبار رجال الدولة، ويصرفون في ذلك أموالًا طائلة.

ويظهر أنّه حدث خلل في العمل بهذه الكبيسة في أواخر الدولة الساسانيّة، كما أنّه لم يعمل بالكبيسة التاسعة التي حلّ موعدها في عهد كسرى أبرويز ربما لطارئٍ طرأ، أو لاشتغاله بالحروب المتتابعة مع الروم، ولم يُعمل بالكبيسة بعد هذا التاريخ، ممّا جعل النيروز يتقدّم موعده مع مرور الزمن إلى درجة دعت المتوكّل لبحث أمر تأخيره.

وقد كانت السُّنَّة في العهد الساسانيّ أن يفتتح خراج كلّ سنة يوم النيروز. وقد بقيت هذه السنة في ما بقي من آثار الساسانيّين في دواوين الخلفاء، وجُعل النيروز

موعدًا لافتتاح الخراج في العهد الإسلاميّ أيضًا. ولكن النيروز الذي كان يقع في العهد الساسانيّ أواخر الربيع وأوائل الصيف لم يبقَ على موعده بسبب ترك الكبيسة، بل كان يتقدّم يومًا في كلّ أربع سنوات حتى صار ذا وطأة على المزارعين والدهاقين تدريجيًا، إذ كان عليهم أن يؤدّوا الخراج قبل موسم الحصاد، فاشتكوا ذلك في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) إلى خالد بن عبد الله القسري عامله على العراق (١٠٦-١٢٠هـ)، وطلبوا منه تأخير النيروز وبذلوا له مأة ألف دينار على ذلك، فكتب فيه إلى هشام، فأجاب هشام: «أخاف أن يكون هذا من النسيء الذي قال الله تعالى فيه: إنّما النسيء زيادة في الكفر» فامتنع خالد عن ذلك، وبقي الأمر كما كان. فلمّا كان زمن الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) راجع الدهاقنة أيضًا يحيى بن خالد البرمكيّ وزير الخلافة طالبين إجراء الكبيسة وتأخير النيروز شهرين، فعزم يحيى على ذلك أوّلًا، إلّا أنّه انصرف عنه أخيرًا حينما بلغه أن قومًا قالوا: أراد أن ينصر المجوسيّة؛ وهكذا ظلّ الأمر على حاله إلى أن جاء دور المتوكّل في سنة ٢٤٣هـ فعزم على التكبيس وتأخير النيروز إلى ١٧ حزيران-يونيو. وقد أورد البيروني نقلًا عن حمزة الإصبهاني حديثًا آخر في سبب عزم المتوكّل على تأخير النيروز فقال:

إنّ المتوكّل بينا هو يطوف في متصيَّدٍ له إذ رأى زرعًا لم يدرك بعد ولم يستحصد، فقال: استأذنني عبد الله بن يحيى في فتح الخراج وأرى الزرع أخضر، فمن أين يعطي الناس الخراج؟ فقيل له: إنّ هذا قد أضرّ بالناس فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم وكثرت لهم شكاياهم وطلبهم؛ فقال: هذا شيء حدث في أيامي أم لم يزل كذا؟ فقيل: بل هو جار على ما أسّسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج في إبّان النيروز وصاروا به قدوة لملوك العرب؛ فأحضر المؤبذ وقال له: قد كثر الخوض في هذا ولست أتعدّى رسوم الفرس، فكيف كانوا يفتتحون الخراج على الرعية مع ما كانوا عليه من الإحسان والنظر؟ ثم يشرح له المؤبذ كيفيّة التكبيس في عهد الفرس وإهمال العرب إيّاها ممّا أدّى إلى ذلك الخلل، فأمر المتوكّل إبراهيمَ بن العباس الصولي أن يوافق

المؤبد فيؤخّر النيروز بالقدر الذي كان قد تقدّم[١]، فحسب الحساب الذي مضى من السنين التي لم يُكبس فيها بعد ذهاب الفرس فوجدوه مأتين وخمسين سنة، فجعلوا لكلّ مائة وعشرين سنة شهرًا، فوافق السابع عشر من حزيران، وأمر أن يجعل النيروز هذا اليوم، وأن لا يفتح الخراج إلّا فيه، وكان هذا في أواخر سنة اثنتين وأربعين ومأتين أو أوائل سنة ٢٤٣ هجرية[٢]. وفي ذلك قال البحتري في قصيدة يمدح بها المتوكّل:

إنّ يوم النيروز قد عاد للعهد الذي سنّه أردشيرُ

أنت حوّلته إلى الحالة الأولى وقد كان حائرًا يستديرُ[٣].

ولكن الأمر لم يتم في عهد المتوكّل، فقد حالَ قتلُه بواسطة الأتراك دون إنجاز هذا العمل، فبقي كذلك حتى زمن المعتضد بالله حيث تمَّ الأمر في سنة ٢٨٢هـ. إلّا أنّهم نقلوا النيروز -أي أوّل شهر فروردين الذي كان في تلك السنة في ١٢ نيسان- إلى ١١ حزيران، وهو اليوم الذي كان النيروز يقع فيه في أواخر العهد الساسانيّ، وتقرّر العمل بكبيسة كالكبيسة الروميّة، أي بإضافة يوم في كلّ أربع سنوات، لاستقرار النيروز أي رأس السنة في محلّه الحقيقي، وكان يعمل بهذه الكبيسة كما ورد في الزيج السجزي بأن يضيفوا يومًا إلى الخمسة المسترقة بعد شهر (آبان) مرّة كلّ أربع سنوات فكانوا يجعلونها ستة. ولذلك اشتهرت هذه السنة المكبوسة بهذه الطريقة بالسنة المعتضديّة، وأصبحت السنة المعتضديّة معتمدةً للسنة الماليّة والزراعيّة، وعمل بها في الدواوين مدّة من الزمن[٤].

ولم تمضِ مدّة حتّى اشتهر النيروز المعتضدي واحتلّ مكان النيروز القديم، وزاد

---

(١) **الآثار الباقية**: ٣١ – ٣٢.

(٢) راجع **بلوغ الأرب**: ج٣٥١ – ٣٥٢، وكتاب «**گاهشماری در ایران قدیم**»: ص١٥٧.

(٣) **الآثار الباقية**: ٣١ – ٣٢.

(٤) إن بدء التقويم المعتضدي والعمل بالكبيسة هو على ما ذكره الطبري سنة ٢٨٢ ولكن المسعودي يذكر ذلك بعنوان تأخير الخراج في حوادث سنة ٢٨٩؛ أما أبو ريحان البيروني فيذكر أول النيروز المعتضدي في يوم الأربعاء ١٢ ربيع الأول سنة ٢٨٢ الموافق لسنة ٢٦٤ يزدجردية؛ على أن الحساب يقضي بأن يكون ذاك في ١٢ أو ١٣ من ربيع الآخر. وقد ورد في كتاب «**منتهى الإدراك**» أيضًا ١٣ من ربيع الأول؛ ولكن الصفدي، بناءً على ما نقل عنه في المجلة الاسيوية: ١٩١١، وبناء على نقل العسكري عنه – يذكر ذلك في ١٣ ربيع الآخر، وهذا هو الصحيح المطابق للحساب، تقي زاده في كتابه «**گاهشماری**»: ص١٥٧.

احتفال الناس به إلى درجة أنّ التقاليد والسنن التي كانت مرعيّة في بغداد في النيروز القديم نُقلت إلى هذا اليوم، أي إلى النيروز المعتضدي. ويحدّثنا الطبري عن غلوّ الناس في صبّ المياه وإشعال النار في النيروز المعتضدي في سنة ٢٨٤ حتى اضطروا إلى منع ممارسة هذه التقاليد، إلّا أنّهم عادوا فأجازوها في اليوم التالي للنيروز[١].

وقد وصف المسعودي في كتابيه (التنبيه والإشراف) و(مروج الذهب) أمر تأخير النيروز منذ عهد الأكاسرة وسبب تأخيره عن موقعه ثم تداركه في عهد الخليفة المعتضد والأثر البارز الذي كان له في أوساط الناس، والاستحسان الذي قوبل به من العامة حتى تبارى الشعراء في وصفه ومدح المعتضد في ذلك؛ قال في التنبيه والإشراف:

«ولما زال ملكهم وفنيت ملتهم وذهب من كان يكبس ذلك ربع اليوم من ملوكهم انتقلت أيامهم فدار نوروزهم في مدة مأتين وخمسين سنة إلى أيام المعتضد نحوًا من شهرين... فجعله في اليوم الحادي عشر من حزيران ونسب إليه فقيل النوروز المعتضدي، وبقي النوروز الفارسي يدور في سائر الفصول الأربعة... وأما القبط فيوافقون الفرس في عدد أيام شهورهم وهي ثلاثون يومًا. أول شهورهم توت، أول يوم منه النوروز القبطي بأرض مصر»[٢].

وقال في مروج الذهب:

«عم الناس تأخر الخراج عنهم، وكان إنعام المعتضد عليهم، فقالت الشعراء في ذلك وأكثرت، ووصفت في أشعارها ذلك وأطنبت، فأحسن يحيى بن علي المنجم فقال:

يا مُحيِيَ الشَرَفِ اللُبابِ ... وَمُجَدِّدَ المُلكَ الخَراب
وَمُعيدَ رُكنِ الدينِ في ... نا ثابِتاً بَعدَ اِضطرابِ
فُتَّ المُلوكَ مُبَرِّزاً ... فَوتَ المُبَرِّزِ في الحِلابِ
أَسعد بِنَيروزٍ جَمَع ... تَ الشُكرَ فيهِ إِلى الثَوابِ
قَدّمتَ في تَأخيرِ ما ... قَد قَدَّموهُ إِلى الصَوابِ

(١) **گاهنامه**: ص١٥٧، قارن ذلك بما نقلناه عن النيروز المصري أيام برقوق.
(٢) **التنبيه والإشراف**: ص٢١٦.

وقوله:

يـــوم نـــــــيروزك يـــوم واحــــــــد لا يــتــأخــر
مـــن حـــزيـــران يـــوافي أبـــدًا في أحـــد عـــشر[1]

النيروز السلطانيّ

ويظهر أنّ العمل الذي قام به الخليفة المتوكّل وتمّ في عهد الخليفة المعتضد بالله لم يكن عملًا شاملًا يهدف إلى إصلاح التقويم الزراعيّ والسنة الخراجيّة من جميع نواحيها، بل اقتصر على تأخير النيروز وتثبيته في وقت من السنة ملائم لافتتاح الخراج، ولذلك نرى أنّه كان يحصل أحيانًا خلل في السنين الخراجيّة الشمسيّة وتطبيقها مع السنين القمريّة الرسميّة، ممّا أدّى إلى بعض إصلاحات أو تطبيقات بين السنة الخراجيّة الشمسيّة والسنة الرسميّة القمريّة بالانزلاق[2] أو بإصلاحات أخرى قام بها بعض الملوك والأمراء. ومن أهمّ هذه الإصلاحات ما اشترك فيه الحكيم الرياضيّ والشاعر المعروف عمر الخيّام النيسابوريّ مع سبعة آخرين من رياضيي عصره كالحكيم اللوكري وميمون بن نجيب الواسطيّ والمظفر الإسْفِزاريّ وغيرهم في عهد السلطان ملكشاه وبأمره، وذلك لإصلاح السنة الشمسيّة وكيفيّة كبسها. وقد كان ما قاموا به من الأعمال والحسابات في غاية من الدقّة والصواب، حتّى إنّ العلماء والمحقّقين يرون أنّ الكبيسة التي قرروها لتثبيت السنة الشمسيّة الخراجيّة وتطبيقها مع السنة الشمسيّة الحقيقيّة، هي أكثر دقّة وصوابًا من الكبيسة الغريغوريّة التي تستعمل اليوم في السنة الميلاديّة؛ فقد وضعوا النيروز في أوّل الربيع أي في ٢٢ من آذار- مارس كما كان في القديم، واستقرّ النيروز في مكانه هذا منذ ذلك التاريخ حتّى اليوم؛ وقد سُمّيت هذه السنة المكبوسة بهذه الطريقة باسم السنة الجلاليّة، وسمّي النيروز الذي احتلّ فيها

---

(١) **مروج الذهب**: ج٤ ص٢٠٣، طبع المكتبة المصريّة ببغداد.

(٢) كانت تطلق كلمة الانزلاق على عمليّة كانوا يقومون بها للتطبيق بين السنة الخراجيّة الشمسيّة والسنة الرسميّة القمريّة وذلك بأن يحذفوا من الدواوين الماليّة في كلّ ٣٣ سنة، سنةً قمريّة بكاملها.

موقعه القديم من جديد النيروز السلطانيّ وهو عيد رأس السنة الإيرانيّة الذي لا يزال يُعمل به اليوم ويُحتفل به في أوّل الربيع من كلّ عام، كما أنّ السنة الجلاليّة هي السنة الرسميّة الفارسيّة المطبّقة اليوم في إيران.

والسنة الرسميّة الإيرانيّة سنة إسلاميّة، أي أنّها كالسنة العربيّة تعتمد الهجرة النبويّة مبدأً لها، إلّا أنّها تختلف عن السنة العربيّة بأنّها شمسيّة سنتها ٣٦٥ يومًا وساعات، بينما السنة العربيّة قمريّة سنتها حوالى ٣٥٤ يومًا؛ فالسنة الحاليّة التي بدأت مثلًا من أوّل الربيع الحالي أي من ٢٢ آذار- مارس ١٩٦٠ هي سنة ١٣٣٩ هجريّة إيرانيّة، بينما نحن اليوم في أواخر سنة ١٣٧٩ هجريّة عربيّة. والاختلاف الناشئ بين السنتين الهجريتَين هاتَين -وهو أربعون سنة ونيف- هو نتيجة تقدّم السنة القمريّة قرابة أحد عشر يومًا عن السنة الشمسيّة كلّ عام.

النوروز في العصر الحديث

قد ينتظر القارئ -وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه من شرح للنيروز وتطوّره في العصور القديمة- أن يقرأ شيئًا عن هذا العيد وعن تقاليده الباقية في العصر الحاضر، ولذلك أرى في خاتمة هذا المقال أن أشير إلى بعض هذه التقاليد الموروثة.

لقد احتفظ النيروز بتقاليده وسننه الرئيسيّة المتأصّلة في النفوس منذ أقدم العصور ولم يطرأ عليها أيّ تغيير جوهري وإن ظهر في تفاصيلها بعض الفروق تبعًا لاختلاف المناطق. وممّا لم يتغيّر مع الزمن شدّة اهتمام الناس بهذا العيد والتقيّد بالاحتفال به مع رعاية سننه الخاصّة؛ وإليك بعض ما نلاحظه اليوم في أمر العيد:

١. ذكرنا نقلًا عن البيروني أنّ الملوك الساسانيّين كانوا يحتفلون بالنوروز ستة أيّام وكان اليوم السادس له يسمى النوروز الكبير وهو بمثابة خاتمة حفلات العيد. وممّا يؤسف له أنّ المصادر والتواريخ لا تذكر لنا شيئًا عن غير الملوك والعظماء، لذا فنحن لا نعرف كم كان عدد أيّام النيروز عند عامّة الناس. أمّا في العصر الحاضر فيختلف هذا العدد على الصعيد الشعبيّ. فبينما تعيّد الحكومة

الإيرانيّة خمسة أيام رسميًّا نرى أنّ أيام النيروز الحقيقيّة عند عامّة الناس هي ثلاثة عشر يومًا، وأنّ النيروز الكبير الذي تختتم به حفلات العيد يقع في اليوم الثالث عشر بدلًا من اليوم السادس، وأنّ هذا اليوم لا يسمّى في الوقت الحاضر بهذا الاسم كما سنفصّل في ما بعد.

٢. كان من تقاليد النيروز القديمة إيقاد النار في ليلة العيد كما ذكرناه في محله، وهذه العادة لا تزال مرعيّة مع شيء من التغيير. أمّا في ليلة العيد فقد حلّت الألعاب الناريّة محلّ إيقاد النيران، وهذه الألعاب تدوم ثلاث ليالٍ: ليلة العيد، وليلتين قبله وبعده. أمّا إيقاد النار التقليديّ فقد تحوّل من ليلة العيد إلى ليلة الأربعاء الأخير قبله ويسمونها «چهارشنبه سوري»، ولهذه الليلة تقاليد خاصّة ضمن تقاليد النيروز، منها إيقاد النار على الطريقة الخاصّة، والسنّة عندهم في ذلك أن يضعوا الوقود -وهو عادة من الحشايش والأخشاب السريعة الاشتعال- أكوامًا متعدّدة أقلّها ثلاثة يجعلونها في صفّ واحد على فواصل معيّنة ثمّ يشعلونها ويقفزون من عليها واحدة بعد أخرى وهم يردّدون: «حمرتك لي واصفراري لك» ويتفنّنون في ضروب هذه الألعاب والقفز على النار كما يتفنّنون في إعداد الحشايش للاشتعال، فيلونونها بألوان زاهية؛ وقد قالوا في تعليل هذه العادة منذ القديم إنّ في إيقاد النار تحليلًا للعفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء، وقيل: إنّما فعلوا ذلك تنويهًا بذكره واستشهارًا لأمره؛ ولكنّ ذلك ليس اليوم إلّا تقليدًا اعتاد الناس أن يأتوا به منذ القديم دون نظر إلى علّته وفلسفته القديمة.

٣. ومن تقاليده هذه الليلة عدا إشعال النيران نوع من التفاؤل تتسلّى به الفتيات بمختلف الطرق لمعرفة مستقبلهن وحظوظهن في السنة الجديدة، فمن هذه الطرق مثلًا أن تقف المتفائلة عند غروب الشمس خلف باب الدار بحيث تسمع المارّة ولا يرونها، فأوّل قول سمعته من حديث المارّة تستخرج منه ما تتكهّن به لمستقبلها، ويسمّون هذا النوع من التفاؤل «فال گوش» أي التفاؤل

من طريق السمع. وهناك نوع آخر من التفاؤل يكون بالشِعر وهذا بالطبع أكثر ملاءمة لمطالب الشباب العاطفيّة، والسنّة في ذلك أن يؤخذ قبل غروب شمس الأربعاء السابق للنيروز بإناء صغير كجرة صغيرة أو كوز فيه ماء، ويضع كلّ واحد من أفراد العائلة فيه شيئًا صغيرًا ممّا يخصّه كخاتم أو زر أو خرزة وما شاكل دون أن يراه غيره، وبعد أن يضع الكلّ أشياءهم يُغطّى الإناء، ثمّ يعلق على مزراب أو يضعونه على السطح، ويجب أن يبقى هناك حتى بعد ظهر يوم الغد، أو المفروض كما يقولون أن يسمع ثلاثة أذانات: أذان المغرب وأذان الصبح وأذان الظهر، فإذا جاز الظهر من يوم الغد يجتمع الكلّ ويأتون بالإناء ببهجة وفرح، ثمّ يختارون فتاة غير بالغة يضعون عليها وعلى الإناء غطاء لتخرج الخواتم، وطريقة إخراجها هي أن ينشد أوّلًا أحد الحاضرين بيتين أو بيتًا من الشعر مناسبًا للمقام، ثم تُدخل الفتاة يدها في الإناء وتخرج من جوفه واحدًا من الأشياء الموجودة فيه، وبعد إخراجه يُتكهن من مضمون الشعر لمستقبل صاحبه، وهكذا دواليك حتى يخرج آخر خاتم أو خرزة من الإناء.

٤. ومن السنن القديمة المتّبعة حتى الآن سنّة زرع الحبوب والغلات قبل النيروز لتكون مخضرّة في أيام العيد، وقد ذكرنا أنّهم كانوا في العهود السابقة للإسلام يبنون قبل العيد ببضعة أيام سبعًا أو اثنتي عشرة أسطوانة ليُزرع في كلّ واحد منها نوع من أنواع الحبوب والغلّات؛ وأصل التقليد لا يزال على أهميّته بحيث لا يكاد يوجد بيت في أيّام العيد يخلو من هذا النوع من الخضرة، إلّا أنّهم لم يعودوا يتقيّدون بالعددَين ٧ أو ١٢. ولا شكّ في أنّ بناء الأسطوانات لزرع الحبوب فيها هو من الاحتفالات الخاصّة ببلاطات الملوك التي تعكسها المصادر التاريخيّة، أمّا عامّة الناس فكانوا ولا يزالون يزرعون الحبوب في أوعية خاصّة، ونرى اليوم ربّات البيوت يتفننَّ في زرعها وفي أشكال آنيتها وأوعيتها وكيفيّة تزيينها بحيث تظهر بشكل أنيق جذاب.

٥. ولئن زال التقيد بالعدد ٧ في زراعة الحبوب إلّا أنّ هذا العدد انتقل إلى تقليد

آخر من تقاليد هذا العيد الرصينة وهو ما يسمونه «هفت سين» أي السينات السبع. وهفت سين عبارة عن مائدة تتضمّن أنواعًا كثيرة من الخضر والفواكه وسواها من الأطعمة والمأكولات التي يتفاءلون بها على أن تضمّ سبعة أنواع يبتدئ اسمها في الفارسيّة بحرف «س» وفي مقدّمتها الخضرة (اسمها بالفارسيّة سبزه) وقدح ماء صافٍ نقي فيه أسماك ملونة ومرآة وثريّات مضاءة إلخ.. وقد يتفنّن بعض العائلات في تزيين مائدة هفت سين بالزهور والثريّات حتّى يبدو فيها من الظرف والفنّ ما يثير الإعجاب حقًّا، ومن السنّة أن يجتمع كلّ أفراد العائلة صغيرهم وكبيرهم حول المائدة عند ساعة التحويل، أي تحويل السنة القديمة إلى السنة الجديدة؛ وتنزل هفت سين في النيروز منزلةَ شجرة الميلاد في أعياد رأس السنة المسيحيّة.

٦. رأينا ضمن التقاليد القديمة لهذا العيد قبل الإسلام تفاؤلهم بالدينار والدرهم الجديدَين وأنّه كان من السنّة أن يُهدى إلى الملك قطعة سكّر مع دينار ودرهم ضُربا في العام الجديد. وقد استمرّت هذه السنّة حتّى اليوم، فالهديّة التقليديّة للنيروز ظلّت كما كانت قطعة نقد جديدة من ذهب أو فضّة قد تضرب لهذا الغرض خاصّة مكتوبة عليها عبارات التهنئة. وتختلف صور النقود على حسب اختلاف الأهواء والأذواق، ففي حين يتبرك الشيوخ والكهول والمتمسّكين بأهداب الدين بتهادي النقود التي نُقشت عليها صورة إحدى البقاع المقدّسة وبالأكثر النقود المضروبة باسم الإمام الرضا وهو الإمام الثامن من أئمّة الشيعة الإماميّة وضريحه في مشهد خراسان، نرى الآخرين يتهادون بأنواع أخرى من النقود ذات النقوش والعبارات المختلفة، كما قد يحاول بعض الفئات استغلال هذه السنّة العريقة بضرب نقود تحمل إلى جانب عبارات التهنئة عبارات أخرى تتضمّن دعاوة لمبدأ أو نظريّة اجتماعيّة أو سياسيّة؛ إلّا أنّ هذا النوع من المحاولات لا يلقى تشجيعًا ولا يحظى بإقبال، فكأنّ النيروز وقد عَبَرَ القرون والأجيال من فوق النزاعات الطارئة والمتطرّفة يأبى بتقاليده وسننه العتيدة أن يخضع لهذه

الظروف ويخرج عن نطاقه الإنسانيّ الذي يجعله فوق هذه الاعتبارات الآنيّة.

٧. قلنا إنّ آخر يوم من النيروز الذي تُختم به حفلات العيد في العصر الحاضر هو اليوم الثالث عشر من الربيع، ويظهر أنّ النيروز الكبير الذي كان في اليوم السادس من الربيع وكانت الاحتفالات تُختتم به في القديم انتقل تدريجيًّا إلى اليوم الثالث عشر وانتقل معه بعض تقاليده إلى هذا اليوم، ولكن دون أن يُسمى بالنيروز الكبير بل بيوم «سيزده بدر» -أي: الثالث عشر خارجًا- وهذا الاسم مستمدّ من أعرق تقاليد هذا اليوم، وهو خروج الناس إلى الحدائق والبساتين أو إلى السهول الخضراء خارج المدن وقضاء كلّ النهار في اللهو والرقص والموسيقى أو في الألعاب الرياضيّة المختلفة، وقد كان من أهمّ الألعاب الرياضيّة في هذا اليوم لعب الكرة والصولجان (پولو) وألعاب الفروسيّة والرماية، أمّا اليوم فقد خلفتها ألعاب رياضيّة أخرى.

ومن تقاليد هذا اليوم أن تحصد الحبوب المزروعة لهذه المناسبة خاصّة، وأن تُلقى خارج البيت، وهذا ما رأيناه ضمن تقاليد النيروز الكبير في اليوم السادس.

وقد تأصلت عادة الخروج من البيت في هذا اليوم لدرجة أنّه إذا كان أحدهم لا يقدر على الخروج إلى الحقول والبساتين طول النهار فلا أقلّ من أن يخرج إلى خارج البيت حتّى ولو لم يمشِ إلّا بضعة أقدام.

ويأتي هذا التمسّك الشديد من تفاعل بعض السنن والمعتقدات القديمة وتشابكها، وهي سنن النوروز الكبير التي كانت ذات جذور راسخة، والتطيّر من العدد ١٣ والإيمان بشؤمه والنحس فيه، ويعتقد الناس أنّ نحوسه لا تخرج إلّا بالخروج من البيت وقضاء كلّ اليوم بهيجًا سعيدًا لينقضي العام كلّه ببهجة وسعادة. ولهذا اليوم تقاليد ممتعة أخرى للشبّان والفتيات لا نطيل ذكرها هنا.

وتنتهي بغروب شمس يوم الثالث عشر من الربيع أعياد النوروز وتقاليده، فيعود الناس إلى بيوتهم مع الشعور بحياة جديدة مع تجدّد الربيع، وتعود الحياة من صباح الرابع عشر تأخذ مجراها الطبيعيّ الدائب الكرور.

٨. وقبل أن أضع القلم أرى من الواجب أن أشير إلى ناحية خاصّة من نواحي تقاليد النيروز، هي الناحية الروحيّة المتبقّية حتّى اليوم منذ أقدم عصور هذا العيد. فكأنّ النوروز كان منذ القديم ولا يزال خير وسيلة لتجديد الحياة في أوّل كلّ عام بجميع نواحيها، وبخاصّة منها الناحية الروحيّة التي تربط الإنسان بعالم أسمى ممّا يعيش فيه؛ فقد رأينا ضمن سنن هذا العيد في العهود القديمة قبل الإسلام أنّ أوّل داخل على الملك في صبيحة يوم النيروز كان المؤبَذان موبَذ وهو رئيس علماء الدين في ذلك الوقت، وكان الموبدان يخاطبه قبل كلّ شخص بعظات وأناشيد دينيّة؛ وقد احتفظ هذا العيد بهذه المسحة الروحانيّة في كلّ عصوره وأدواره مع تغيير في الشعائر بحسب المعتقدات الدينيّة؛ فمن التقاليد المتبعة في أيامنا هذه أن يكون على بساط العيد نسخة من القرآن الكريم ليكون أوّل ما يقع عليه النظر عند حلول السنة الجديدة.

وقلنا إنّهم كانوا يتفاءلون قديمًا بأن يكون أوّلُ داخلٍ في البيت في أوّل السنة رجلًا ميمون النقيبة مبارك الوجه، حتّى إنّهم كانوا يرصدون لذلك شخصًا حسن الاسم والوجه يدخل عليهم في الصباح قبل كلّ شخص، فيقول أنا المنصور واسمي المبارك ومن قبل الله أقبلت وبالهناء والسلامة وردت ومعي السنة الجديدة. والسّنة اليوم لا تزال كما هي منذ آلاف السنين، إلّا أنّ أوّل داخل في البيت هو عادةً ربّ البيت الذي يخرج بعد حلول السنة هنيهة ليعود فيدقّ الباب ويدخل، ويجب حتمًا أن يأخذ بيده القرآن الكريم ويدخل به جميع جنبات البيت. وقد كتب أحد الكتّاب الحديثين ذكرياته عن النوروز فقال: «كانت أمّي أوّل داخل في البيت عند حلول السنة الجديدة؛ كانت تدخل وفي إحدى يديها القرآن الكريم ومرآة، وفي يدها الأخرى شمعة مضاءة ووردة. وبهذا الوضع كانت تدخل كلّ غرفة من غرف البيت مرتلةً الآيات القرآنيّة والأدعية المأثورة لتجلب بذلك الخير والرحمة لكلّ أرجاء البيت. القرآن الكريم مظهر من مظاهر الخشوع لله وعبادته، والمرآة رمز للصفاء والطهر، والشمعة

آية للإشعاع والحرارة، والوردة علامة الطراوة والريعان، أي أنّ الإنسان يجب أن يبقى طوال السنة خاشعًا لله طاهر القلب منوّر الوجدان متفتّح الخاطر.

وعندما يجتمع كلّ أفراد العائلة بلباس العيد وزينته حول خوان «هفت سين» المزدان بأنواع الرياحين وألوان الزهور ومختلف الأنوار بانتظار حلول السنة الجديدة وعلى جانبه مبخرة يصعد منها طيب البخورات، يجلس الشيوخ والكبار على رأس الخوان حيث وُضع القرآن الكريم ويردّدون هذا الدعاء المأثور للنيروز خاصّة:

يا مقلب القلوب والأبصار، يا مدبّر الليل والنهار، يا محوّل الحول والأحوال، حوّل حالنا إلى أحسن الحال.